



نجيب محفوظ والميتافيزيقا

بقلم سمير أحمد ندا

اما سهيل وغسان وكوليت وغادة ، فتحاربهم تتصل بنسب الى الفلسفة الوجودية التي سادت اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية .

وقد يوجه اعتراض على اقتران الميتافيزيقا بالرواية . فمصدرها ومستقرها كما يقول المعترضون الباحث والدراسات المتخصصة . ويرد نجيب محفوظ على ذلك بقوله : « ان الفيلسوف يضيف جديدا الى الفلسفة الانسانية ، اما الاديب المتفلسف ، فهو الذي يعبر تعبيرا فنيا عما يأخذ به من هذه الفلسفة . وهو يفيد بذلك الفلسفة . لانه يحولها الى تجربة تعيش في النفس البشرية » (٤) وتمضي سيمون دي بوفوار في تفسير هذا المنهج ، اذ تفرق بين نوعين من الفكر ، موضوعي Objectivité وذاتي Subjectivité ، تقول في اولهما : « اننا لا نرضى مطالب التجربة الروائية اذا ما اكتفينا بأن نقتنع الفكرة العقائدية المكونة مسبقا ، تحت اهاب خيالي متلون ان قليلا وان كثيرا . . . » (٥) وبعد ان ترفض ادماج الافكار الموضوعية في العمل الروائي ، تركي هذا الادماج بالنسبة للفكر الذاتي فتقرر : « بأن الرواية وحدها ، هي التي تسمح باحياء الانبثاق الاصلي للوجود . . . ولا نعني هنا ان الكاتب يستغل على صعيد ادبي حقائق مقررة مسبقا على الصعيد الفلسفي . بل ان مهمته ان يصور مظهرها من التجربة الميتافيزيقية ، اعني طابعها الذاتي ، الفريد الدراماتيكي » (٦) ترى الى اي الفكرين ينتمي نجيب محفوظ !؟

بعد ان اجتاز نجيب ، رحلته التاريخية في ثلاثيته الفرعونية ، وبعد ان افاد كثيرا من الفكر الانساني بين يدي سلامة موسى وطه حسين والعقاد وغيرهم كما يعترف بذلك ، شرع في اقتحام الواقع ومواجهة شخوصه ، ومعالجة مواقفها ، متزودا بهذا الرصيد المتناثر من الفيبسات والفكر الليبرالي ، ثم من المنطق العلمي والفكر الاشتراكي . وقد تجلى ذلك في « القاهرة الجديدة » . ومهما بدت لنا الارضية الواقعية التي صورها في هذه الرواية ، متماسكة ، للوهلة الاولى ، فان النظرة المتأنية ،

الفنا في حياتنا الادبية ، ان نسمع ، ونقرأ ، ونشاهد ، ما يسمى بالمرح الفكرية ذي الابعاد الميتافيزيقية (١) . وهو ما يسمى بالمرح في مقعد او الدراما المقفلة Cleset drama . وقد فشل هذا اللون في الاقتران بالتأدية المسرحية عندنا ، وما ذلك الا لانه اقتصر على مناقشة قضايا مجردة ، دونما الاعتماد على خلفية مجتمعية انسانية فتسطحت شخوصه ، وتميعت ابعاده ، ناكسا بذلك عن المواضع الدرامية ، فأنحسرت عنه بالتالي اضواء المسرح (٢) ، وعلى الرغم مما حاق بهذا اللون من فشل اورثنا الخوف زمنا من المعالجات الدرامية للمشكلات الميتافيزيقية ، فانه يحق لنا الوقوف امام الروايات التي تحمل هذا الطابع نرسل النظر اليها ، ونطلق الفكر فيها ، ونسرح خلالها الوجدان .

اعتكف نسب هذا اللون على نجيب محفوظ ، وان كنا لا نستطيع اغفال بعض الاعمال الروائية ، لكتاب عرب آخرين ، مثل سهيل ادريس ، وغسان كنفاني ، وكوليت خوري ، وغادة السمان . (٣)

غير ان خلفية نجيب محفوظ ، تختلف كثيرا عن تلك التي يصدر عنها الآخرون ، فقد تميزت معظم اعماله ، عن الدوحة الروائية الميتافيزيقية ، الاوروبية وفي مقدمتها جويس وبروست ثم سارتر وكامن وبيكيت ويونيسكو ، وكذا الرواية الروسية وعلى رأسها فيدور دوستوفسكي .

١ - يرجع الاصل الاشتقاقي لتعبير الميتافيزيقا الى يونانيتين هما : Meta أي (بعد) و Physique وتعني الطبيعة . وينسب هذا التعبير الى ارسطو ، مع انه لم يستخدمه فيما كتب . ويرجع ان اول من اطلقها على مبحث من مباحث ارسطو ، كان اندرونيقوس الذي صنف اعماله فيما بعد فشاء ان يميز بين كتاب الطبيعة Physique عن غيره من الموضوعات التي تناولت ما وراء الطبيعة وما تنطوي عليه من مشكلات دعاها ارسطو : (ابوريا) Aporia وما تحتويه كذلك من قيم ، واسباب معرفة ، وعلل للوجود . وقد انقلبت الميتافيزيقا رأسا على عقب بمقولة الوجوديين ، من ان الوجود سابق على الماهية وكان العكس من قبل .

٢ - على رأس كتاب هذا اللون المسرحي ، الاديب الكبير توفيق الحكيم ومن اشهر اعماله : اهل الكهف - شهرزاد - بيجماليون .

٣ - من ابرز رواياتهم في هذا الصدد : اصابعنا التي تحترق - رجال في الشمس - ايام معه - لا بحر في بيروت .

٤ - حديث بمجلة الاذاعة .

٥ ، ٦ - الوجودية وحكمة الشعوب . تأليف سيمون دي بوفوار .

ترجمة جورج طرابيشي . دار الآداب - صفحة ٧٩ وما بعدها .

تكشف عن خلل في بنيتها ، يتجلى اوضح ما يكون ، فيما عرضه لنا من شخصوص ، نضبت حيويتها ، وفعاليتها الانسانية ، على مستوى التصوير الدراسي ، فهي لا تعدو ان تكون مجرد اصوات ، لافكار مسبقة ، تحتم في ذهن المؤلف ، ولانه تقصد ، في المقام الاول ، التعبير عن تلك الافكار ، فقد تهالك البناء الروائي ، في «القاهرة الجديدة» لانه لم يرض مطالب التجربة الروائية ، كما تذهب سيمون دي بوفوار . ومثل علي طه ومحجوب عبد الدايم ، ومأمون رضوان ، كمثل مرنوش وشلينا ، ويمليخا في « أهل الكهف » . ذلك انهم ، وان كانوا يناقشون قضايا ميتافيزيقية ، فان حرارة التجربة الانسانية تعوزهم الى حد كبير . واذا كانت « أهل الكهف » تعتبر ، تأصيلا وتقييما لفن توفيق الحكيم حتى اليوم . فان « القاهرة الجديدة » كانت ارهاصا بتطور عميق الاثر بالغ الخطورة في ادب نجيب محفوظ . حيث نلتقي به فيما بعد وقد طرح عن قلمه تدريجيا مختلف الفكر الموضوعية ، ليحقق لشخصه دينامية موصولة بعالم سمته الحركة والتغيير . شخصوص لم تكتف بالافكار الموضوعية وانما سعت الى التجربة الذاتية وما يتمخض عنها من فكر .

وتبرز من بين هذه الشخصوص ، فيما بعد ، شخصية كمال عبد الجواد ، ومهما قيل في امر تفسيرها حتى من قبل المؤلف نفسه (١) ، فنحن لا نراه الا مندفعا في خوض غمار تجربة البحث عن الحقيقة : « ليست الحقيقة قاسية ، ولكن الانفلات من الجهل مؤلم . اجر وراء الحقيقة حتى تنقطع منك الانفاس . ارض بالالم حتى تخلق نفسك من جديد . . . » (٢) وفي نظرية دارون عن التطور ، يتلمس طوق نجاة في محيط الشكوك ، ويعلم صوت السيد :

— وآدم ابو البشر الذي خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه ، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية ؟
— دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلم عن سيدنا آدم .

هتف الرجل غاضبا :

— لقد كفر دارون ووقع في حبال الشيطان . اذا كان أصل الانسان قردا او اي حيوان ، فلم يكن آدم أباً للبشر ، هذا هو الكفر بعينه ، هذا هو الاجترار على مقام الله وجلاله . (٣)

ويتصل الحوار بعد ذلك ويحمي وطيسه ، فيصرخ السيد :

— ألم تجد غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيها ؟
« لماذا كتب مقالته ، لقد تردد طويلا قبل ان يرسلها الى المجلة ، ولكن كان كأنما ينعي الى الناس عقيدته . لقد ثبتت عقيدته طول العامين الماضيين امام عواصف الشك التي ارسلها المعري والخيام ، حتى هوت عليها قبضة العلم

١ — يقول نجيب : انا كمال عبد الجواد في الثلاثية — حديث بمجلة الاذاعة العدد ٢ ، ٣ ، ٤ — قصر الشوق صفحة ٣٢٥ وما بعدها.

الحديدية ، فكانت القاضية ، على اني لست كافرا ، لزلت أومن بالله ، اما الدين ، ذهب ، كما ذهبت رأس الحسين ، وكما ذهبت عايذة وكما ذهبت نقتي بنفسي » (١) .

ان هذه البلبلة ، اقرب الى ما نسميه اليوم بالقلق الوجودي ، الذي يسبق لحظة التخلي (الهجر) ، هي معاناة رهيبية تشتعل بالقلب والفكر معا ، حين يبدأ الانسان في الانشفاق عن اللامرئي ومعاشية العالم المحس ، حتى لو كان هذا العالم تافها ، وهكذا في تطور تدريجي يصل كمال الى ذروة الهجر : « لقد تعذب كثيرا ، ولكنه لن يقبل ان يفتح قلبه من جديد للاساطير والخرافات التي طهره منها العلم . كفى عذابا وخداعا ، لن تعبت بي الاوهام بعد اليوم ، النور ، النور ، ابونا آدم ، لا أب لي ، ليكن أبي قردا ان شاءت الحقيقة » (١) ثم يوافينا صوت انيس زكي بعد مضي عشر سنوات : « اصل المتاعب مهارة قرد ، تعلم كيف يسير على قدميه ، فحرر يديه ، وهبط من جنة القرد الى ارض الغابة . وقالوا له عد الى الاشجار والا اطبقت عليك الوحوش . فقبض على غصن شجرة بيد وعلى حجر بيد وتقدم في حذر وهو يمد بصره الى طريق لا نهاية له . » (٢) ثم يسقط انيس ، في شباك غيبوبة المخدر ، ليصحو عمر الحمزاوي ، على عتاب الواقع هامسا :

— ان كنت تريدني حقا فلم هجرتني ؟ (٣)

لقد أثر نجيب محفوظ نفسه ، ان يهجر الواقع ، بعد ان تجول بنا في خان الخليلي مع احمد عاكف ، وفي زقاق المدق مع حميدة ، ثم في شبرا بصحبة نفيسة ، لكن هجرته تلك لم تكن عقيمة كسياحة عمر الحمزاوي وانيس زكي ، وانما اعتمدت على ركيزة من المنطق ، وومضة من النبوة ، كتلك التي ينسبها فورستر الى كل من لورنس ودوستويفسكي وجويس (٤) .

فاذا سلمنا بالمبررات التاريخية والواقعية التي تشكل خلفية « القاهرة الجديدة » وكذلك الثلاثية — على اختلافهما في الصياغة الدراماتيكية ، كما قررنا ذلك سلفا — ثم استجبنا لضياح محجوب عبد الدايم ، والحاد علي طه ، في الرواية الاولى ، ثم قلق كمال عبد الجواد ومن بعد الحاد احمد شوكت ابن شقيقته خديجة ، في الرواية الثانية ، اذا استجبنا لتلك المبررات التاريخية والواقعية من خلال الصياغة الروائية لاحوال مصر منذ مطلع القرن العشرين الى ما بعد الحرب العالمية الثانية . فاننا نقف حيارى — للحظة — ازاء ضياح سعيد مهران ، وصابر الرحيمي ، وعمر الحمزاوي وانيس زكي ، والمقومات التاريخية غيرها بالامس ، والمجتمع غير المجتمع ، ودوافع

١ — قصر الشوق — الموضوع السابق ذكره .

٢ — ثرثرة فوق النيل صفحة ٢٠١ .

٣ — الشحاذ — صفحة ١٩١ .

٤ — Asbect of the Novel. A. M. Forester

السنين الضوئية ، الى الاشياء ، وتصعد لوعتهم استغاثة
محمومة :

– يا أي شيء أ فعل شيئاً ، فقد طحفتنا الاشياء (٣) .
هو سعيد الرحيمي ، عبر طريق الشوك ، الذي
ادمى وعي صابر ، فلم يحظ بما كان يأمله من ابيه
ليتحقق الامن والعدل والسلام ، بل ان الرحيمي يعمن في
السخرية من ابنه فلا يكتفي بالتخلي عنه وانما راح يلهو
فوق الكرة (٤) . وتتواصل حلقات المفامرة الروحية
الكبرى ، فيسقط عمر الحمزاوي شبه مجنون (٥) ، فقد
أضاع حياته من أجل خرافة اسمها زعبلاوي (٦) ، وصفه
البعض بأنه صاحب معجزات ، وقال عنه آخرون ، انه قاتل
خطير ، فيطارده الضابط محسن عبد الباري ، الذي
لا يلبث ان يسقط صريعا بيد ذلك القاتل المجهول (٧) .

لكن القرد يتحرك من جديد ، هذا ما يؤكد لنا عمر
الحمزاوي . مجرد حركة ، وتثير هذه الحركة الهواجس
في خمارة القط الاسود بحارة الجبلابي (٨) ، تتصاعد
الهواجس الى مرتبة من الجدل الحاد في احد فنادقها
(ميرامار) ولكن بلا جدوى .

ويرجع الكون اصداء انين الحارة القديمة ، من
جديد ، انين غريب ، لحن جنائزي رهيب ، الف بين نباح
الكلاب ، ومواء القطط ، وطرقعة الصفعات على الاقنية ،
وعواء الجنس ، وتهاويم السطل ، ونجيب الربابة عندما
ينزوي الليل على الحارة ، فينشط الفتوات الى تدبير
المؤامرات ، ويسقط الشهداء بلب الخديعة . وحنش ، أهل
المسحوقين ، وقدمات الجبلابي ومن بعده عرض ، والحارة
لما تنزل تنتظر (٩) . . . ومعها ننتظر لنعود مرة أخرى الى
منطلق مفامرة انسان نجيب محفوظ الميتافيزيقية ونمضي
واياه في عوالم المجهول ، مهتدين بكشوف الرواد الاوائل
في هذا السبيل . . .

سمير احمد ندا

القاهرة

الازمة لدى الابطال الاول ، انتفت ولو نظريا . . فكان من
المفروض ان نلتقي بنماذج بشرية اخرى فيما انتجه نجيب
بعد الثلاثية . لكن الرؤيا النافذة والنوبة الخالصة ، لدى
الفنان الى حقائق الامور ، تكشف لنا خبايا الازمة ، بل
وتفاقمها عن ذي قبل . خاب سعي علي طه واحمد شوكت
ورفيق جهادهما عثمان خليل ، قال له عمر الحمزاوي :

– على اي حال قامت الثورة وهي تشق طريقها
بعقلية اشتراكية (١) .

فحدجه بنظرة متفحصة طويلة ، حتى قرأ فيها
معاني لم تسره ، ويضطر خالد عزوز الى تحديد معالم تلك
النظرة ، فيقول :

– كل قلم يكتب عن الاشتراكية ، على حين تحلم
اكثرية الكاتبين بالاقتناء ، والاثراء ، وليالي الانس في
المعمورة (٢) .

تلك هي مطامح رؤوف علوان الماركسي القديم ، قال
لتلميذه سعيد مهران وهو يحاوره :

– يا عم سعيد ، زال تماما جميع ما كان ينقص
علينا صفو الحياة .

فقال سعيد من فم مكتظ :

– طالما هزتنا الانباء في السجن ، من كان يحلم
بشيء كهذا ؟

ثم وهو يحدجه بنظرة باسمه :

– لا حرب الآن .

– لتكن هدنة ! ولكل جهاد ميدان (٣) .

وتخرق نصوص الهدنة المترفة ذات يوم ، وتعلن
الحرب من جديد فيلوذ عثمان خليل المتشبه باشتراكيته
رغم عذاب السجن ، برفيق جهاده الاول عمر الحمزاوي
في منفاه الروحي .

– أصغ الي يا عمر ، اني في موقف خطير ، انهم
يبحثون عني في كل مكان ، واذا القوا القبض علي
هلكت (٤) . . .

وخرج شبح الى الشرفة الارضية المتصلة بالحديقة
وزعق :

– انتهى ، انتهى ، قبض عليه ، وانتهى كل شيء (١) .
استسلم عثمان خليل لجلاديه ، لتموت مبادئه في
سعيد مهران ، الذي اخلد للموت بلا مبالاة . . . بلا
مبالاة . لما ان تأكد يقينه بعث الواقع الموهوم لدى
حنظل (٢) .

ذلك هو التبرير الفني لعذابات الضياع التي تمزق
ابطال ما بعد الثلاثية ، ويهرع الجميع الى السماء ، الى
منطقة انعدام الوزن ، الى اعماق الكون ، الى ملايين

١ – الشحاذ – صفحة ١٥٢ .

٢ – ثرثرة فوق النيل – صفحة ٥٦ .

٣ – اللص والكلاب – صفحة ٤١ ، ٤٢ .

٤ – الشحاذ – صفحة ١٨٤ .

- ١ – الشحاذ – صفحة ١٨٨ .
- ٢ – حنظل : بطل قصة قصيرة من مجموعة دنيا الله صفحة ٢١٧
- ٣ – ثرثرة فوق النيل صفحة ٣٨ . ولقد قال لي الأستاذ نجيب
هذه الجملة على هذا النحو : يا اي شيء ، ا فعل اي شيء ، السخ ،
لكنني اثبت ما بالرواية .
- ٤ – الطريق .
- ٥ – عمر الحمزاوي بطل رواية الشحاذ . وسوف يتردد اسمه
كثيرا في رسالتنا هذه .
- ٦ – زعبلاوي قصة قصيرة من مجموعة دنيا الله صفحة ١٥٧ .
- ٧ – محسن عبد الباري بطل قصة ضد مجهول من نفس المجموعة
السابقة صفحة ١١٢ .
- ٨ – خمارة القط الاسود ، قصة من المجموعة التي تحمل هذا
الاسم ، واما حارة الجبلابي فهي مسرح رواية نجيب محفوظ الخطيرة
اولاد حارتنا .
- ٩ – الفتوات وحنش والجبلابي وعرفة هم بعض ابطال رواية
اولاد حارتنا . التي اصدرتها دار الآداب عام ١٩٦٧ .